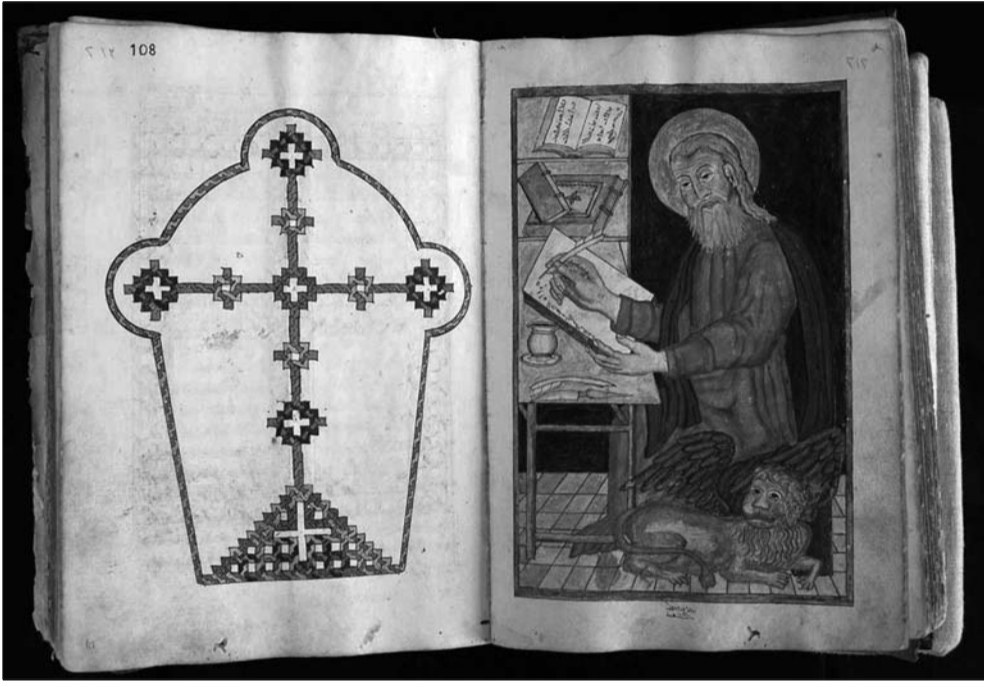


اليسوعية تقود مشروعاً لجمع المخطوطات وتصنيفها: حجم المساهمة المسيحية في الحضارة العربية مجهول



بعدما أخذها نابليون من مصر، وكذلك في المتحف البريطاني.

ويشير إدلبي إلى أنه لن يتم استرداد المخطوطات في فرنسا وبريطانيا، «وإنما نسعى لإقامة علاقات بين مكتبات الدول العربية وبينها وبين تلك الأوروبية».

أما في لبنان، فتعتبر «المكتبة الشرقية» من المكتبات الكبرى التي اهتمت بالمخطوطات، إلى جانب مكتبات الأديرة.

ويوضح إدلبي أن الأب لويس شيخو، الذي أنشأ المكتبة في القرن التاسع عشر، ينتمي إلى إرسالية غربية هي الإرسالية اليسوعية، علماً أنه كلداني من العراق، «لكن الإرسالية شجعت على إنشاء المكتبة لأن أوروبا كانت تعيش عصر النهضة، وجريت نقل شيء من نهضتها إلى لبنان، لناحية النشر والتأليف»، مشيراً إلى أن غالبية الكتاب في تلك الفترة كانوا من المسيحيين، من أمثال جرجي زيدان وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وغيرهم.

دورات تدريبية على المخطوطات

في عام ٢٠٠٨، قرر مركز «سيدراك»، التابع لكلية العلوم الدينية في اليسوعية، إجراء دورات تدريبية لتصنيف المخطوطات المتوفرة حالياً في المكتبات، بالتعاون مع وزارة الثقافة الإسبانية التي تمول المشروع.

بدأ التدريب بإجراء دورة قصيرة استمرت أربعة أشهر، واشترك فيها أمناء مكتبات تابعة لعدد من الجامعات، تعزفوا إلى ورق المخطوط وتاريخه والكتب المكتوب فيه.

بعدها، في عام ٢٠٠٩، نُظِم «سيدراك» دورة أكثر شمولية، استمرت لمدة عام، وحمل في نهايتها المتدربون شهادة دبلوم جامعية، وقدم المحاضرات في الدورة خمسة أساتذة جامعيين، متخصصين في علوم المخطوطات وتقنياتها، وهم أستاذ مصري وآخر هولندي وثلاثة أساتذة من فرنسا.

وتراوح عدد المشاركين في الدورة بين ثمانية وبين اثنين عشر شخصاً، هم أربعة أمناء من مكتبة دير اليلمند، وأربعة من دير الشرفي التابع للسريان الكاثوليك في حاريسا، وأمين مكتبة من دير كفرحي للمطران مارونية في البترون، وأثنان من المكتبة الشرقية التابعة لليسوعية، بالإضافة إلى اثنين من المهتمين بالمخطوطات.

وربما يشمل التدريب في وقت لاحق المخطوطات الإسلامية، كما قال إدلبي، مشيراً إلى أنها مشتركة مع المسيحية في الخط ونوعية الورق. يشار إلى أن مكتبة المقاصد اشتركت مع مركز «سيدراك» في إصدار كتاب المخطوطات العربية في لبنان.

وتم البحث في إمكانية مشاركة طلاب جامعيين في التدريب، لكن «الاختصاص دقيق جداً، ويتطلب أشخاصاً من ذوي الخبرة والباع الطويل، إذ يمكن أن يستغرق البحث مثلاً في صفحة مخطوط واحدة، أسبوعاً كاملاً».

جمعية لإحصاء المخطوطات

تتوزع المخطوطات بين المكتبات وبين الأفراد، ونظراً لعدم

ما زال من البكر القول إذا كان مشروع «الجامعة اليسوعية» لإعادة تجميع المخطوطات العربية المسيحية ونشرها، سيساهم في إعادة كتابة تاريخ المسيحيين في المنطقة العربية، لكنه يشكل خطوة جادة وطويلة على ذلك الطريق.

يقول الأب ناجي إدلبي، المسؤول عن المشروع، إن «التراث المسيحي في الدول العربية ما زال غير معروف، ولا سيما في مجالات الفلسفة والطب واللاهوت»، موضحاً أن الشائع هو أن التراث المسيحي متأثر بالتراث الغربي، بعدما ربط المسيحيون بالإرساليات الأجنبية، ولكن ربما تكتشف بعد قراءة المخطوطات أن التراث المسيحي هو تراث عربي بالدرجة الأولى، وأن المسيحيين هم جزء من سكان الجزيرة العربية، وساهموا في الترجمة والطب، خاصة في العصر العباسي، أي قبل مجيء العثمانيين، لكن مؤلفاتهم غير معروفة».

يضيف أن هناك العديد من المفكرين المسيحيين الذين لم تنشر مؤلفاتهم، فيما نشرت مؤلفات بعض المفكرين، استناداً إلى مخطوط واحد، مع العلم أنه يوجد أكثر من مخطوط للمؤلف نفسه.

ومن المعروف أنه كان يتم نسخ المؤلفات في مخطوطات عدة، وقد يحصل تغيير في النص بين مخطوط وبين آخر.

وبرأي إدلبي، المتفرغ تقريباً لمعرفة تاريخ المسيحيين، فإن «الخوف التاريخي لدى مسيحيي المنطقة العربية، ناتج عن الوجود الطاغى للإسلام، وذلك هو ما حصل مع الشيعة أيضاً، ولذلك لجأ المسيحيون إلى الغرب ذي الأثرية المسيحية، لأنه يمنحهم الانتماء الديني أولاً، ثم الاستقلالية ثانياً، بوصفه سلطة بعيدة عنهم».

لكن، أصبحت هناك «قناعة حالياً لدى عدد كبير من المسيحيين، ومن بينهم البطريركية المارونية بأنهم من العرب، وما تحاول الجامعة اليسوعية معرفته هو دور المسيحيين في الحضارة العربية».

مكتبات المخطوطات

يقول إدلبي إن «الشكوى الدائمة لدى الباحثين هي استخدام المسيحيين القدامى لفردات لاهوتية، بينما تبين من خلال الإطلاع على العديد من المخطوطات أن مسيحيي العصور الوسطى كتبوا بالعربية، وهناك أجزاء من الكتاب المقدس، أي الإنجيل، كتبت بالعربية، وتلك مسألة لم تكن معروفة ولا واردة في أذهان المسيحيين».

وتفاوتت أعداد المخطوطات بين بلد عربي وآخر. ففي سوريا مثلاً، استطاع المسيحيون الاحتفاظ بتراثهم بسبب وجود الأديرة، وغالبية المخطوطات موجودة في حلب لدى المطرانية المارونية ولدى مطرانية الروم الكاثوليك ومركز الأديار والبطريركيات الأرثوذكسية. وقد جمع الأب بولس سباط، وهو أحد الكهنة السريان الكاثوليك في حلب، مكتبة مخطوطات أعطى نصفها للفاتيكان في روما، فيما اشترت مطرانية الروم الكاثوليك في حلب نصفها الآخر.

وفي العراق، قام الأب يوسف حبي بنشر بعض المخطوطات، وفي مصر يوجد جزء من المخطوطات في المكتبات القبطية، وجزء آخر في المكتبة الوطنية في باريس

مخطوط من مكتبة جامعة الروح القدس في الكسليك

الاهتمام بها مسبقاً، لا توجد إحصاءات شاملة حول عددها وطبيعتها، سواء المسيحية منها أم الإسلامية. لذلك قرر مركز «سيدراك» إلى جانب التدريب، إنشاء جمعية خزانة المخطوطات في لبنان، ومهمتها تحديد أماكن وجود المخطوطات واللغات التي كتبت فيها: العربية والسريانية والأرمنية واللاتينية. وقد حصل لتلك الغاية لقاء في آذار الماضي بين أمناء خزانة المخطوطات في المكتبات في جامعة الكسليك، تبعه تقديم علم وخبر لوزارة الداخلية لإنشاء الجمعية.

والمكتبات المشاركة هي: دير الخالص في جون، والمعهد اللاهوتي في الشرق الأوسط التابع للبروتستانت، والمكتبة الشرقية، والبلمند دير بزمار للأرمن، ودير القديس بولس في حاريسا، ودير مار يوحنا في الشوير، ودير الشرفي للسريان الكاثوليك، وجامعة الكسليك، والرهينة الأنطونية، والرهينة المريمية، والجامعة الأميركية، ومكتبة المرسلين اللبنانيين، ومعهد الأوزاعي ومكتبة المقاصد.

وربما يشجع إنشاء الجمعية الأفراد الذين يملكون مخطوطات على الإعلان عنها، وبينهم، كما ذكر إدلبي، الوزير محمد الصفدي.

من جهته، يوضح أمين مكتبة الكسليك الياس سعادة أنه تعلم في الدورة قراءة الخط العربي استناداً إلى تاريخ كتابته، وكيفية صنع الدفاتر وجمعها، لأن كل كتاب مؤلف من مجموعة كراريس، وكيفية حفظ المخطوط من التلف، ثم وضع تقرير عن خصائصه، تتضمن نوعية الغلاف،

والصفحات ومضمونها، وطريقة خياطتها لأن الخياطة تساهم في الدلالة على تاريخه.

كما تعلم كيفية قراءة اللغة الكرشونية التي انتشرت بعد منع الإمبراطورية العثمانية العرب من استخدام اللغة العربية، ولجوء المسيحيين، على إثر المنع لاستخدام الأحرف السريانية في الكتابة بالعربية، مثلما يحصل حالياً لدى كتابة العربية بأحرف لاتينية، وخاصة في الرسائل الإلكترونية.

ويقول سعادة إن عدداً كبيراً من المخطوطات مكتوب بالكرشونية من القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهي تتضمن مواضيع عدة في الطب والفلسفة والرياضيات والتنجيم واللاهوت. ويوضح أن مكتبة اليلمند تعمل أيضاً على حفظ المخطوطات التي يملكها الأفراد، عبر ترميمها وتنظيفها ووضعها في علب خاصة لا تصل إليها الحموضة.

ويؤكد أن عدداً كبيراً من الباحثين يقدون إلى المكتبة من أجل الإطلاع على المخطوطات، والاستفادة منها في أبحاثهم، ولا سيما الأبحاث المتعلقة بتاريخ العائلات والمدن في لبنان والمنطقة.

ولعل أهم ما خلص إليه أدلبي قوله: إن ما تكتشفه من خلال المخطوطات هو أنه لم يعد باستطاعتنا رفض ثقافة ساهمنا في صنعها، من العصر العباسي... وصولاً إلى القرن التاسع عشر.

زينب ياغي